

أحرف العربية وأحوال الست (1)

للهكتاف محمد عيسى

دمشق

الحمض النووي من الخلية البذرية المولدة ، اطلقوا عليها اسم مدونة (ADN) . وبفك رموز هذه المدونة وجدوا انها مؤلفة من اربعة أحرف ، دعوها بالابجدية الوراثةية ، ورمزوا اليها بأحرف (ت. س. غ. ت) . ويشمل معجم هذه المدونة (64) كلمة ، قد تبايز بعضها عن البعض ، كل كلمة منها تشكل متواليه من ثلاثة أحرف على الشريط الكيمائى ، الألف الفكر (2) .

واذن يمكن أن نستنتج من هذا الاكتشاف اللغوي البيولوجى الحديث ، ان الاتسان لم يبدع اللغة استجابة عقلية للضغوط البيئية المشتركة بين الاتسان والحيوان فنصب ، وانما استجابة لتركيبه البيولوجى

اللغة ، كاداة للتواصل بين البشر ، هى كالأصوات الهيجانية والحركات البدنية ، وما اليها من وسائل التواصل والأعلام فى دنيا الاتسان والحيوان على حد سواء .

ولكن لماذا انصرف الاتسان عن وسائل الأعلام البديلة هذه الى اللغة ، وبينها فروق نوعية جبارة استحال معها على الحيوان أن يجتازها الى اللغة ؟ كان الفلاسفة وعلماء اللغة والنفس يعززون ذلك الى ملكة العقل فى الاتسان . ولكن يبدو ان علماء البيولوجيا قد جاؤوا بتعليل جديد آخر .

فلقد اكتشف علماء اللغة البيولوجيون مؤخرًا ، لغة حياتية مسجلة على شريط كيمائى فى جزئ

- (1) مدخل الى دراسة بعنوان « الحروف العربية والحواس الست » معدة للطبع .
- (2) كتاب الاتجاهات الرئيسية لبحث العلوم الاجتماعية والانسانية . اليونسكو ، المجلد الثانى ، ترجمة وزارة التعليم العالى السورية ص 306-313

أيضا، وقد جهز بشرط لغوي مسجل في خليته البخرية المولدة (نسيحان الذي علم الانسان بما لم يعلم) .

وهكذا فاللغة بحسب هذا الاكتشاف تنتمي الى الخصائص البيولوجية في الانسان ، قبل ان تنتمي الى الملكة العقلية فيه. وان لغة الانسان الفجر هي من نتاجه الفطري الاصلق والفريزة وليست قطعا مجرد مصطلحات عقلية تواضع الناس على معانيها .

كما يدمم هذا الاكتشاف صحة من ذهب الى القول بأن أصوات الحروف ، هي أصل اللغة ، وان اللغة ذات الامعمال والصادر الثلاثية الاحرف ، كاللغة العربية ، هي أقرب الى فطرة الانسان الموروثة من سواها .

اسوق هذه النبذة من مدونة (ADN) و

ابجديتها الوراثة ، لا كحقيقة علمية نهائية ، لتعطيل نشأة اللغة ، ففي كل يوم حدث علمي جديد ، وانما للوصول الى ان الربط بين أصوات الحروف العربية والحواس الست ، ليس امرا مزاجيا ، اذ يمكن ان يرتقى هذا الربط الى مرتبة العلمي ، اذا ايدته التجربة.

وهكذا تعرضت في هذه الدراسة بحكم الصلة الجديدة المفترضة بين الحروف العربية والحواس الست ، الى قضايا خاصة تتصل بعلوم النفس والاجتماع والتاريخ والآثار والنيوزيولوجيا والاصوات، لم يسبق ان تعرض لها باحث في اللغة العربية على ما أعلم .

فجرد القول بوجود حاسة سادسة ، ومن ثم السعي للكشف عن العلاقة الكائنة بين اصوات

الحروف العربية وبين الحواس الست ، مما لم يثره دارس في اللغة العربية حتى الآن ، لا بد له من نهج جديد في البحث والتقصي ، ولا بد لهذا النهج اذا كان صحيحا ان يطرح قضايا غير مطروقة ، ليصل الى نتائج غير مسبوقة .

ومع ذلك لا يحسبن القارئ ان موضوع هذه الدراسة مبتكر لم يسبقني اليه أحد . فلقد تناوله كثير من علماء اللغة العربية وفلاسفتها وفتحاتها وأدبائها طوال الف عام ونيف .

فال موضوع الاساسي لهذه الدراسة هو فطرية اللغة العربية .

وهذه الفطرية التي ظلت من مسلمات المدرسة اللغوية القديمة ، طوال الف عام ، قد رفضها اخيرا أصحاب مدرسة لغوية محدثة من خريجي الجامعات الغربية ، وقالوا برمزية اللغة واصطلاحيتها غريبة كانت اللغة او عربية . لقد اخذوا بآراء علماء اللغة الغربيين الذين اجمعوا على ان اللغة « هي التعبير الرمزي بالذات وان كان لها الاولوية على كافة انماط الرمزية التواصلية » (3) .

ولقد شهد القرن الحالى صراعا مرًا بين المدرستين ، كانت الغلبة العديدة فيه لاصحاب المدرسة الحديثة ، بحكم القابهم العلمية الرفيعة ، ومراكزهم الجامعية المرموقة ، وسلطانهم الرسمي على عقول اجيال من ادبائنا ولغويينا من خريجي الكليات الادبية التي يشرفون عليها ، لا فرق بين من قال منهم بعبقرية اللغة العربية ، وبين من انكرها.

وهكذا تضامر على دعوى نظرية اللغة العربية
عوامل كثيرة ، من أبرزها :

أ - إجماع علماء اللغة الغربيين على رمزية
اللغة ، ليصبح القول بنظرية اللغة العربية في نظرهم
ونظر تلاميذهم ، ضربا من التخلف الفكري أو التتوقع
التمسبي ، دون أن ينتبهوا الى ما بين لغتنا واللغات
الغربية من فوارق في الاصل والنشأة والبنية .

ب - اعتماد أصحاب المدرسة القديمة من
القداسي والمحدثين على الحس الشعري المرفه في
المثقف العربي : اذن موسيقية مدرية على الشعر ،
تترك الفروق الدقيقة بين تلوينات الاصوات ، ومعاناة
ادبية طويلة ، يدرك معها الفروق الدقيقة بين تلوينات
معانى الالفاظ . وهكذا لم يتبع اصحاب هذه
المدرسة في ذلك نهجا علميا تجريبيا ، ولم يستمعوا
بمختلف العلوم الانسانية والطبيعية الحديثة . فكانت
ادلتهم اللغوية تعتمد تارة على النصوص (كالملايلي)
وتارة على ملكة التنوق الفني (كابن جني) ، وتارة
على صدى صوت اللفظة في النفس (كالارموزي) .

ج - انصراف معظم ادبائنا ولغويينا المحدثين
عن الشعر العمودي تولا وحفظا ورواية ، مما اخذ
معه الحس الشعري المرفه ينضب في نفوسهم جيلا
بعد جيل ، لتضمر بذلك الملكة الفنية التي كانت تأخذ
بأسلانهم الى فطرية اللغة العربية عفو السليقة
الشعرية والنشأة الادبية .

ولكن هل يستحيل علينا ان نجعل الانسان
العربي المعاصر يدرك نظرية اللغة العربية ؟

اذا كانت فطرية اللغة العربية حقيقة انسانية ،
فلا بد لها ان تطرح مجموعة من القضايا الانسانية
والمادية ، التي يمكن اخضاعها للخبرات العلمية ،

مما يحتم على المعتل تبول نتائجها ، عربيا كان ، او
غير عربي .

**فما هي القضايا التي تطرحها فطرية اللغة
العربية ؟**

هذه الفطرية تعنى مبدئيا ، ان اللغة العربية
مقتبسة مباشرة عن الطبيعة ، ماديا وانسانيا ،
وان اثر الطبيعة لا يزال عالقا في جذور حروفها مبنى
ومعنى الى يومنا هذا .

واذن، فانها تقترض ان الانسان العربي الذي
أبدع هذه الحروف لم ينحدر عن شعب آخر ، وان
حروفه لم يقتبسها عن لغة اخرى .

كما ان هذه الفطرية تقتضى ان يكون الحرف
العربي كظاهرة ثقافية ، قد تفاعل مع مقومات
الشخصية العربية وقيمتها وتقاليدها ، وان يكون
الاتسان العربي بالمقابل قد تفاعل مع المسطحات
الثقافية للحرف العربي ، ومع خصائصه الصوتية
ايضا .

ولقد استهدفت من هذه الدراسة اقامة الادلة
على صحة هذه المقولة ومقتضياتها .

ولكن ما هو موقف المدرستين اللغويتين الاتفتي
الذكر من هذه النتائج المستخلصة مباشرة من مقولة
نظرية اللغة العربية ؟

بينى وبين اصحاب المدرسة اللغوية الحديثة :

لما كانت هذه المدرسة ترفض اصلا فطرية
اللغة العربية ، فمن البدهى ان ترفض ايضا نتائجها .

فلا الحرف العربي بكر ، ولا الاتسان العربي فجر ،
وليس ثمة اي تفاعل بين الحرف العربي والاتسان
العربي ، ولا العكس بالعكس صحيح ، الى آخر

قد ترعرعت في ربوعها ، انهل من ينابيعها ، وأتطف
من ثمارها ، وأنفياً ظلّالها . فكانت جنّتي اللغوية
النجر ، وما كان اسمعني بها ، حتى ظننت انه
لن يكون يوماً ما اي فراق بيني وبين اقطابها .

ولكن ، على الرغم من انطلاقي واياهم في البحث
والتقصي من نقطة الأبتداء ، هي بداية الحرف
العربي ، ووصولنا سوية الى نقطة الانتهاء ، هي
نظرية اللغة العربية ، فانسى لم ألتق واياهم في هذه
المسيرة اللغوية الطويلة بين هاتين النقطتين ، الا في
صدف من تقاطع الطرق ، لتتفق حيناً وتختلف احياناً
كثيرة .

فلقد اعتمد اصحاب هذه المدرسة في ابحاثهم
وتقصياتهم بصورة عامة على سليقة ادبية متمكنة ،
وحس مرهف الشعور . ولربما تجاوزوا في تقصياتهم
احياناً ، النطاق اللغوي التقليدي ، الى نطاق علوم
النفس والحركة والاصوات ، والاجتماع وغيرها ،
ولكن دون أن ترقى مثل تلك اللع الذكية الى مرتبة
البحوث العلمية الحديثة . فلا نهج علمي تجريبي
واضح ، ولا استثمار جدي لمكتشفاتهم اللغوية في
ميادين النفس والاجتماع والتاريخ والاصوات وما
اليها .

ولقد عقدت فصلاً خاصاً في هذه الدراسة بعنوان
(علماء اللغة العربية وابحاث الحروف) استعرضت
فيه آراء لفيف من كبار اصحاب المدرستين اللغويتين ،
حول خاصية الإيحاء في الحروف العربية ، المرتبطة
مباشرة بنظرية اللغة العربية .

أما انا ، فقد نهجت في التدليل على فطرية
اللغة العربية نهجاً مغايراً .

ما هنالك من ضروب الرفض والانتكار ، حتى ليظن
القارئ وكأنه لا لقاء بيني وبين اصحاب هذه المدرسة
في شيء .

وعلى الرغم من افتراضي واياهم في بداية
الشوط ، واختلاقي واياهم في نهايته ، فما اطول
ما تعقبت خطاهم بين هاتين النقطتين ، وما أكثر ما
لجأت الى العلوم التي استخدموها في ابحاثهم اللغوية ،
(وان غنّسى كل منا على ليله) .

ولئن كنت استعنت بنبذ من علوم التاريخ والآثار
 والاجتماع والفيزيولوجيا والاصوات والفن والاخلاق ،
بمعرض اقامة الأدلة والبراهين على صحة هذه المقولة ،
فان هذه الدراسة تنتهي أكثر ما يكون الانتهاء الى
علم اللغة النفسى .

فاللغة العربية بخصائصها ومزاياها النظرية ،
لا يمكن أن تنكشف للذهن العربي ، ما لم يستخدم
العلوم اللغوية الحديثة في دراستها وتحليلها ، ولكن
تحت رقابة حس شاعري مرهف ، وذوق ادبي رفيع .

فاللغة العربية كظاهرة نظرية من مظاهر
الحياة الانسانية ، لا تخشى العلم الحديث قطماً ،
ويتدر ما نستخدم من الوسائل العلمية الحديثة في
استجلاء كنهها ، تتاح لنا الفرص للكشف عن المزيد
من قبيها الجمالية ومضامينها الثقافية، لا بل وللكشف
ايضا عن المزيد من خصائص الحياة الانسانية وقبيها ،
كرفيقتي عمر منذ فجرها الحضاري الاول .

فنى اللغة العربية من الاصال العلمية ، ما في
اي بادرة اصيلة من بوادر الحياة .

بينى وبين اصحاب المدرسة اللغوية القديمة :

انسى واحد من تلاميذ هذه المدرسة ومريديها .

فما هو منهجي في هذه الدراسة ؟

كما تبين لي ان الانسان في الجزيرة العربية
قد مر بمراحل حياتية ثلاث :

1 - مرحلة الصيد : وقد استمرت منذ فجر
الانسانية حتى الالف الثالث عشر قبل الميلاد . وكان الرجل
القوي في هذه المرحلة هو سيد الاسرة بلا منازع .

2 - مرحلة الزراعة : وقد بدأت اول ما بدأت
على وجه الارض في الجزيرة العربية على يد المرأة ،
حوالي الالف الثاني عشر قبل الميلاد . فكانت المرأة
في الجزيرة العربية اول فلاح في التاريخ لتكون بذلك
اول معلم في دنيا الحضارات . وفي هذه المرحلة انتزعت
المرأة النكية زعامة الاسرة من الرجل القوي .

3 - مرحلة الرعي : وقد نشأت في الجزيرة
العربية اول ما نشأت على وجه الارض ، حوالي الالف
العاشر قبل الميلاد . وفي هذه المرحلة استعاد الرجل
الشجاع المحارب سيادته على الاسرة ، ولا يزال
محتفظا بها الى حد ما ، حتى اليوم .

كما تبين لي ان انسان الجزيرة العربية قد
أبدع حروفه عبر هذه المراحل الحياتية الثلاث ، فكان
منها الغابي والزراعي والرعوي . وقد أبدع الرجل
استجابة للمقتضيات المهنية في مرحلتي الصيد
والرعي بعض الحروف ، كما أبدعت المرأة استجابة
لمقتضيات مهنتها في المرحلة الزراعية بعض الحروف
ايضا .

وهكذا فان الموجات البشرية التي خرجت من
الجزيرة العربية بين الالف العاشر والثامن قبل الميلاد
الى وادي الفرات ووادي النيل ، تحت ضغط الجفاف
المتزايد ألف عام بعد ألف ، كانت تحمل بذور حضارة
راقية ، من حروف عربية ، ورموز كتابية ، وأدوات
مدنية ، ومعتقدات سماوية وتنظيمات قبلية كانت

لقد اعتمدت طريقة الخطأ المفترض في البرهان
الرياضي للتحقق من صحة مقولة فطرية اللغة
العربية . أفترض ، وأتساءل عن صحة الافتراض ،
وأجيب . ثم أتساءل عن صحة الاجابة . وهكذا ، الى
ان تتطابق الاجابة الاخيرة مع حقيقة الواقع . فتسحب
هذه الحقيقة الاخيرة ، بحكم المنطق الرياضي ،
على جميع الافتراضات السابقة وأجوبتها .

الافتراض الاول :

اذا صح ان اللغة العربية فطرية النشأة ، فان
ذلك يفترض بداءة الحرف العربي وفجرية الانسان
العربي على حد سواء .

(بداية الحرف العربي مرتبطة مباشرة بفجرية
اللغة العربية ولا تراق . وفجرية الانسان العربي
مستخلصة من هذه الصلة الراهنة بين معاني الحروف
العربية وبين الطبيعة . اذ لو ان الانسان العربي
اقتبس حروفه عن غيره ، لانتظمت هذه الصلة بينها
وبين الطبيعة ، مثلما انتظمت في الحروف الغربية
المقتبسة اصلا عن الابجدية الفينيقية) .

وللاجابة على هذه الفرضية ، عقدت فصلا
خاصا في مستهل هذه الدراسة بعنوان : « حول
بداية الحرف العربي والانسان العربي » .

ولقد تبين لي من هذه الدراسة ، ان انسان
الجزيرة العربية ظل مقبلا فيها لم يبرحها قطعا ، ولم
يفزه في عقرداره شعب آخر على الاطلاق ، منذ بداية
العصر الجليدي الرابع حوالي الالف الستين قبل
الميلاد حتى الالف العاشر أو الثامن قبل الميلاد ، بعد
ان أبدع جميع حروفه .

اساس أنظمة الحكم في المنطقة العربية حتى العصر الحديث .

الافتراض الثاني :

إذا صح أن الحروف العربية بديئة ، فالافتراض أن يكون الإنسان العربي قد استخدم أصواتها للتعبير من مختلف أحاسيسه الحسية ومشاعره الانسانية .

وفي الحقيقة ، عندما لمس الإنسان العربي الفجر الأشياء من حوله ، لأبد أنه قد عبر عن الاحساس بالخشونة أو النعومة أو الحرارة أو الصلابة ، وما إليها من الملامس ، بأصوات معينة مرفقة بحركات جسدية ملائمة ، وذلك بمعرض التواصل والاعلام مع أبناء مجتمعه . واذن يمكن أن نطلق على مثل هذه الاصوات اسم الاصوات اللمسية . ولا بد أن هذه الاصوات والحركات قد تطورت وتنهبت مع تطوّر الإنسان العربي ، عقليا ونفسيا ، واجتماعيا ومهنيا ، لتستقط الحركات الجسدية وتختصر الاصوات الكثيرة أخيرا في أصوات حروف لمسية معينة .

ثم عندما تذوق هذا الإنسان الأشياء وشمها ، ونظر إليها وسمع أصواتها ، وعندما عانى بعض الانفعالات الشعورية ، فلا بد أن يكون قد عبر عن كل ذلك بأصوات خاصة مرفقة بحركات ملائمة ، على مثال ما فعل باللموسات . لتستقط الحركات ، وتنهبت الاصوات ، فتختصر في حروف ذوقية وشمية وبصرية وسمعية وشعورية .

الافتراض الثالث :

إذا صح أن الإنسان العربي قد عبر عن أحاسيسه ومشاعره بأصوات الحروف العربية الفجرية فالافتراض أن توحى الاصوات بمختلف الاحاسيس

والمشاعر الانسانية . فأصوات الحروف ، قبل ان تنتمى الى القطاع اللغوي ، تنتمى أصلا الى القطاع الموتى .

ولقد اقتضتسي الاجابة على هذا الافتراض ، القيام بدراسة مبتكرة على الحواس الخمس للكشف عن العلاقات المتبادلة بين الاصوات والحواس ، وقد خلصت من هذه الدراسة الى تصنيف الحواس نسي هرمين حسيين اثنين :

1 - فالحواس الخمس من حيث ماديتها يمكن تصنيفها في هرم حسي سوي .
يبدأ هذا الهرم بحاسة اللمس ، أشد الحواس مادية ، كتعادة له . ثم تأتي حاسة الذوق الأتلى ، مادية ، في الطبقة الثانية . ومن ثم تأتي حاسة الشم ، فحاسة النظر ، لتحتل حاسة السمع أقل الحواس مادية وأكثرها تجريدا ، قمة الهرم .

ب - أما الحواس الخمس من حيث قدرتها على استيعاب الاحاسيس (أي التلار بها وادراكها) ، فيمكن تصنيفها في هرم حسي منكوس ، ذروته في الاسفل ، وقاعدته في الاعلى .

يبدأ هذا الهرم بحاسة اللمس المغلقة على نفسها في الذروة المنكوسة ، فلا توحى ملامس الأشياء باي احساس ذوقي أو شمى أو بصري أو سمعي أو شعوري . ثم تأتي حاسة الذوق فى الطبقة الثانية . فتوحى مذاقات الأشياء ، بأحاسيس لمسية فقط ، ولا توحى بشيء من أحاسيس الحواس الأخرى أو المشاعر الانسانية . ثم تأتي على التوالي حواس الشم ، فالنظر ، فالسمع . كل حاسة منها تدرك أحاسيسها وتستوحى أحاسيس من دونها من الحواس ، دون أن تستطيع استيعاب أحاسيس من

بالذات .

وهذا ما قانني الى القول بان الشعور الذي يعي ذاته بذاته ، هو الحاسة السادسة . نعمتدت فصلاً خاصاً للكشف عن دور الشعور ، سواء في عملية ابداع اصوات الحروف عن طريق التتمص ، او في عملية استيحاء معاشي الاصوات عن طريق الاستبطان ، لأخلص أخيراً الى البرهان على ان الشعور يتمتع بخصائص الحواس ، وان تميز عنها في بعض المواصفات . ونظراً لشغافية هذه الحاسة وتجردها المطلق عن المادة فقد صنفتها على امتداد الهرمين الحسين فوق ذروة الاول وقاعدة الثاني .

الإفتراض الرابع :

إذا صح ان الانسان العريى قد عبر عن احساسه ومشاعره بأصوات حروفه ، وان الاصوات توحى فعلاً بمختلف الاحاسيس والمشاعر الانسانية ، فالافتراض ان توحى أصوات الحروف العربية بهذه الاحاسيس والمشاعر .

(نمجرد القول بان الانسان العريى الفجر قد استخدم أصوات حروفه للتعبير عن احساسه ومشاعره ، لا يتضمن بالضرورة هذه الصلة الإيحائية بين أصوات الحروف ومعانيها . إذ يمكن ان نصرف ذلك الى ان الانسان العريى قد فرض رمزية مصنعة بين الحروف ومعانيها . وذلك على مثال تجربة العالم بانوف الشهيرة الذي استخدم فيها قرع الجرس لتنبية الحاسة الذوقية في كلبه . وليس بين مدى قرع الجرس وبين حاسة ذوق كلبه الا عادة تقديم الطعام له عند القرع ، ولا ايهاء ولا استيحاء) .

توتها . ولذلك فان حاسة السمع تستوحى مختلف الاحاسيس والمشاعر الانسانية . بمعنى ان الاصوات توحى أصلاً بمختلف الاحاسيس والمشاعر الانسانية .

وهذه العلاقة بين الاصوات وبين الاحاسيس والمشاعر الانسانية قد اكتشف بعضها كثير من العلماء والابناء والشعراء والفلاسفة . منهم عالم الصوت (بلاز) الذي تبين له من كشافه (ان ثمة تشابهاً بنويماً أساسياً بين أصوات اللغة التي تدركها الآن ، وبين الألوان التي تراها العين) (4) .

ومنهم الشاعر الفرنسى رابيو الذي لاحظ ان لأصوات بعض الحروف الفرنسية إحياءات بألوان معينة ، ليوحى له صوت حرف (O) باللون الاسود .

ومنهم ابن جني الذي جاء بقاعته الشهيرة (حذوا لسموع الاصوات على محسوس الاحداث)، لتوضيح العلاقة الطبيعية بين الصورة الصوتية للفظة وبين صورتها المرئية في الحدث الذي تعبر عن معناه .

ومنهم الارسوزي الذي قال بالعلاقة الثلاثية الاركان بين الصورة الصوتية للفظة العربية والصورة المرئية لها ، وصداها في الوجدان (اي المشاعر الانسانية) .

الا ان أحداً لم يقل بأية علاقة بين الاصوات والاحاسيس الذوقية والشمية .

ولكن تبين لي أثناء هذه الدراسة ، ان الاصوات الانتمالية ، لا يمكن ان توحى بمشاعرها الانسانية بدقة ، إلا اذا كان سامعها قد عانى سابقاً هذه المشاعر

الحرف العربي دوره النعال في تكوين معنى اللفظة العربية .

وللتحقق من صحة هذه الافتراضات لجأت الى المعاجم اللغوية للكشف عن مدى التوافق بين خصائص الحروف الصوتية وبين معاني الالفاظ التي تدخل في تركيبها .

ولقد كان من أصول البحث العلمي ، ان أستخرج معاني جميع المصادر التي تبدأ بحرف معين ، ثم معاني جميع المصادر التي تنتهي به ، ومن ثم جميع معاني المصادر التي يقع هذا الحرف في أواسطها . ثم أثارن بين هذه المعاني وبين الخصائص الصوتية لهذا الحرف . وذلك لأرى مقدار نسبة التوافق بين خصائصه الصوتية وبين معاني جميع المصادر التي شارك في بنائها . واخيرا ، لتقرر فيما اذا كان الانسان العربي قد استخدم الخصائص الصوتية لهذا الحرف في معاني الفاظه ، ام أنه لم يفعل . وهكذا حرفا بعد حرف ، لتحكم في النهاية ، فيما اذا كان للحروف العربية معان خاصة ، ام انها مجرد رموز على معان ، وان اللفظة العربية بالتالى ، مجرد مصطلح على معنى ، كما يقول اصحاب المدرسة اللغوية الحديثة .

ولما كان هذا التتبع العلمي فوق طاقتي ، فقد رأيت باديء ذي بدء ان أكتفي باستخراج معاني الالفاظ التي تبدأ بالحرف موضوع الدراسة ، بزعم ان الحرف الاول من اللفظة العربية ، هو الذي يطبع معناها بخصائصه الصوتية . وذلك استنباطا من النزعة الفردية في الانسان العربي المنهم بانه مولع بمكان الصدارة من كل أمر ، لا يبعد معها ان يتعد الرعامة في الكلمة للحرف الاول . فماذا كانت النتيجة؟

وللتحقق من صحة هذا الافتراض ، أخذت أتأمل مدى أصوات الحروف العربية في نفسي حرفا بعد حرف ، للكشف عن خصائصها ومعانيها ، على مهل الشهور والاعوام . ولقد تبين لي ان هذه الحروف موزعة بالنمط بين الحواس والمشاعر الانسانية ، لكل حاسة مجموعة من الحروف ، ولكل انفعال شعوري أساسي ، حرف خاص .

فكان لحاسة اللمس ستة حروف هي : (ت ، ث ، د ، ذ ، ك ، م) .

وكان لحاسة الذوق حرفان اثنان هما (ر ، ل) .

وكان لحاسة البصر أحد عشر حرفا هي (الهمزة ، ا ، ب ، ج ، ح ، س ، ش ، ط ، ظ ، غ ، و ، ي) .

وكان لحاسة الشمور سبعة أحرف هي : (ص ، ض ، ن ، خ ، ح ، ه ، ع) .

أما حاسة الشم فلم أجد لها حرفا خاصا بها ، وان كان لبعض أصوات الحروف أبحاث شمبية ، الى جانب أبحاثها الحسية الخاصة . على ان حرف الطاء البصري ، هو ألصق الحروف بحاسة الشم ، مخرج صوت وايحاء معنى .

الافتراض الخامس :

اذا صح ما انتهيت اليه من تأملاتي الخاصة ، من حيث تصنيف الحواس في هرمين حسيين ، ثم من حيث توزيع الحروف بين الحواس والمشاعر الانسانية ، فالافتراض ان يكون لكل ذلك سنده من واقع اللغة العربية . ولا بد للانسان العربي ان يكون استثمر الخصائص الصوتية لحروفه في ابداع الفاظه للتعبير عن معانيها . وبتعبير أدق ، لا بد ان يكون لصوت

تصدرها أو تتوسطها أو تنتهي بها ، كما لم تستطع ان تحتفظ بطبقاتها الهرمية . فهي حروف أمعية ، لتلوين معانى الالفاظ التي تدخل في تركيبها ، كحروف : (ا ، و ، ي ، ط ، ح) . شأن هذه الحروف ، شأن الاعميات في المجتمعات الانسانية .

وهكذا بالتزام معاني الالفاظ التي تبدأ بالحروف القوية الشخصية طبقاتها الحسية ، لا تتجاوزها الى الطبقات العليا ، الا نادرا ، وان شملت الطبقات الحسية الانسى ، فان ذلك يؤكد صحة تصنيف الحواس في الهرم الحسي المنكوس ، وان الاصوات بخاسة توحى بأحاسيس جميع الحواس .

الافتراض السادس :

(كل اثر فني اصيل يحمل بالتأكيد نفحة من روح مبدعه ، لينطبع بطابعه الشخصي المميز ، عمارة كان الأثر ، او نحتا ، او رسما ، أو شعرا ، أو موسيقى او أدبا ... مما يستطيع معه فواتة الفنون الأصلاء ، أن ينسبوا الآثار الفنية المجهولة الانساب الى أصحابها) .

ناذا صح ان الانسان العربي قد أبدع حروفه عنو فطرته السوية ، ليصير بها عن أحاسيسه ومشاعره في الفاظ طوال آلاف الاعوام ، فالمفترض ان يحمل الحرف العربي طابع الشخصية العربية.

وللنتحقق من صحة هذا الافتراض عقدت فصلا خاصا في القسم الثاني من هذه الدراسة بعنوان : « بين فردية الانسان العربي وفردية الحرف العربي »

وفي الحقيقة ، لما كان الانسان العربي قد بدأ حياة الرعي والتشرد في الجزيرة العربية منذ الألف العاشر قبل الميلاد ، ولا جدران عالية تعصمه من

لقد صدقت وجهة نظري هذه بالنسبة للحروف القوية بصورة غير متوقعة . فكانت خصائص الحروف ذوات الشخصيات المتميزة تتطابق مع معانى الالفاظ التي تبدأ بها ، بنسب تتراوح بين (40-66) بالمئة ، كحروف (د ، ر ، ل ، ب ، ج ، ف ، ز ، ق ، خ ، ص ، ه ، ع) . كما أن معاني الالفاظ التي بدأت بمعظم هذه الحروف قد التزمت بطبقاتها الهرمية ، لم تتجاوزها الى الطبقات العليا ، الا نادرا ، وبفعل حرف قوي الشخصية يثنى الى تلك الطبقات ، وتلك معجزة خارقة لا مثيل لها في أي لغة من لغات العالم .

معاني جميع الالفاظ التي تبدأ بحرف الدال اللسبي مثلا ، لم تتجاوز طبقة اللسبية الى الطبقات العليا الا في ثلاثة ألفاظ (الدسم) للطبقة الذوقية ، و (نندن) و « دوى » للطبقة السمعية .

أما الحروف الشاعرية الرقيقة ، كحروف : « م . س . ن . » ، فكانت تُقدر على فرض خصائصها الصوتية على معانى الالفاظ ، عندما تقع في نهائياتها ، وليس في أوائلها ، وتلك رهافة سمع في الانسان العربي مقلنة للانتظار .

(وذلك ، على مثال ما كانت المرأة في المجتمع الرعوي أوحى بخصائصها الانثوية ، رقة وحشمة واحاطة وحنانا ، عندما تستقر في مضربها في مؤخرة الصلوف ، أنسجلا مع ميلها الفطري الاصيل السبي دواعي الطمينة والاستقرار . على العكس من الرجل الراعي في صحرائه ، الذي كان بجهازة صوته ، وخشونة منظره وصلابة قسماته ، أوحى بالقوة والرجولة وادمى البطولة ، عندما يكون في مقدمة الصلوف) .

أما الحروف الضمنية الشخصية ، فلم تفلح في فرض خصائصها الصوتية على معاني الالفاظ التي

عاديات الوحوش والناس ، ولا ستوف مرفوعة
تقيه من تقلبات الطقس والطبيعة ، فقد استجاب لكل
هذه التحديات بحصون منيعة من القوة والشجاعة ،
وبأريية واقية ، من التتشف والصبر والجلد .

ولما كان المجتمع العربي الرعوي لم ينعم بسلطة
مركزية مسيطرة تحميه من أعدائه والطماعين بقطماته
فقد لجأ الى روابط قبيلة تنجده عند الحاجة وتثار له
عند الاقتضاء .

ولما لم تتوفر له مؤسسات اجتماعية تكمله في
عوزه ومرضه وضعفه وطوارئه ، فقد أحدث مؤسسات
انسانية من تقاليد الكرم والضيانة ومفاهيم الشهامة
والمروءة والنجدة والشرف ، يلجأ اليها عند الضرورة .

وهكذا قامت فردية الانسان العربي أول ما
تأمت ، على أصالة الصلة بين طاماته الروحية
وطاماته الجسدية ، بعضها يأخذ بعناق بعض .
فكلما صبت نفسه في موافقه الى قيم انسانية عليا ،
استجاب جسده لتحديات الحياة قوة وتجلدا . والعكس
بالمعكس صحيح . لتقوم فردية الانسان العربي أصلا ،
على الرابطة الاصلية بين القيم الاخلاقية والقيم
الاجتماعية .

وبالمقابل ، فان الحروف العربية قد نشأت منذ
نجرها الاول في بيئة بكر ، لا لغة فيها ، ولا فن ولا
أدب ، ولا دين ، ولا فلسفة ، فألقى الانسان العربي
على عاتقها كل هذه الاعباء الثقافية للتعبير عن احساسه
ومشاعره وانكاره وحاجاته . وقد استجابت الحروف
العربية عبر العصور لهذا التحدي الثقافي الكبير .
لتحمل الحروف العربية في طيات أصواتها تراث
الانسان العربي الثقافي ، ان لم يكن تراث
الانسانية .

وهكذا قامت فردية الحرف العربي على أصالة
الصلة بين خصائصه الصوتية المميزة وبين معانيه ،
على مثال ما قامت الفردية العربية على أصالة الصلة
بين طاماته الجسدية وطاماته الروحية .

وانسجاما مع نهج الانسان العربي النفسى
الاخلاقى مراتبه الاجتماعية وتقاليد، ومؤسساته، قد
خص الحروف العربية التى فى أصواتها تناسق
وانسجام وفعالية يختلف معانى الشهامة والمروءة
والسؤ ومشاعر النخوة والحنين والخشوع وما اليها
من القيم الانسانية . اما الحروف التى فى أصواتها
نجاحة واضطراب ورخاوة ونشاز ، فقد خصها بمعانى
النظاظة والتباحة والخسة والسذارة والعمامة
والاضطرابات النفسية والتشوهات الجسدية ، وما
اليها من النقائص الانسانية ، فى روابط صحيحة
صريحة متبادلة بين القيم الجمالية والقيم الاخلاقية ،
ظاهرة لغوية متفردة فى دنيا الحروف لا مثيل لها فى
لغات العالم أيضا .

ليصدق بذلك الحدس الذى تأسست عليه أصلا
هذه الدراسة ومآله :

« لا فن بلا أخلاق ، ولا أخلاق بلا فن »

الافتراض السابع :

إذا صح أن الانسان العربي قد صبّ فى
الحرف العربي عصارة روحه ، وخلصه مقوماته
الشخصية ، على وجه ما سبق ، فالافتراض أن يكون
ثمة علاقة نفسية بين الحرف العربى والانسان
العربى .

وللتحقق من صحة هذا الافتراض ، عقدت فصلا
خاصا فى القسم الثالثى من هذه الدراسة بعنوان :
« الجوانب النفسية فى الحرف العربى » .

ولقد عقدت في القسم الثاني من هذه الدراسة
 نصلا خاصا بعنوان « الحروف العربية والاصوات
 الفنائية » ، كشفت فيه عن مخارج اصوات بعض
 المغنيين والمرتلين ، منهم ذو المخرج الصوتي العيني ،
 (وديع الصافي ، عبد الوهاب في شبابه ، فيروز ، أم
 كلثوم) ، والهاثي (فريد الاطرش ، خضيرى أبو
 عزيز) ، والحائي (نجاح سلام) ، واليائي (فايزة
 احمد) ، والنونسي (عبد الباسط عبد الصمد ، احمد
 السكري) .

ولكن هل تقتصر هذه القاعدة الصوتية اللغوية
 على الانسان العربي نحسب ، ام انها تتجاوزه الى
 الناس كافة ؟

بحكم أصالة الصلة بين الخصائص الصوتية
 للحروف العربية المتقبسة عن الطبيعة وبين معانيها،
 فان الحرف العربي، في هذا المضمار الصوتي اللغوي،
 يتجاوز نطاقه القومى الى الانسانى . ولقد ضربت
 على ذلك بعض الامثلة عن مختلف الشعوب .

ومن ينكر علينا هذه الملاحظة بين شخصية
 الانسان وبين مخرجه الصوتى على مستوى الأفراد
 والشعوب ، فائى احيله الى المنحنيات الصوتية
 الثلاثة التى اكتشفها العالم (ادوارد سيفرز) وتلميذه
 الموسيقى « غوستاف بكينج » .

فكل فرد ، على رايها ، يحمل كلامه خصائص
 لا تتعطل ، ولا يمكن التخلّى عنها . وهذه الخصائص
 ترجع فى أصلها الى القسم الأدنى من الجهاز
 الصوتى الواقع بين منطقة البطن ، وبين الصدر
 والتجويف البطنى . وتحليلهما للأصوات البشرية،
 تبين لهما ان ثمة ثلاثة نماذج أساسية من المنحنيات،
 ولكل منها تفرعاته . وكل متكلم ينتهى أصلا لواحد من

وفى الحقيقة ، لها كان لصوت كل حرف عرسى
 خصائصه الصوتية الذاتية التى توجي بمعانيه ، فانه
 لا بد للانسان العربى بصورة مبدئية ان تتأثر نفسه
 بخصائص هذه الحروف عند التلفظ بها . فاذا كان فى
 صوت الحرف اهتزاز واضطراب كالهاء مثلا ، انعكس
 هذا الاهتزاز والاضطراب على نفس قائله وسامعه
 على حد سواء . ويكون ذلك أوضح ظهوراً ، اذا رافق
 مثل هذا الحرف حروف مناسبة ، وركبوا فى صيغة
 ملائية ، ولا بد لقائل هذا الحرف ان تعانى جلته
 العصبية ، ذات الاهتزاز ، والاضطراب ، استمدادا
 للتلفظ به . على مثال ما أصاب مبدعه الاول ، ولو
 بانفعال مخفف ، آه ، آواه .

وهكذا الامر مع بقية الحروف ، وانن :

لها كانت خصائص الحروف العربية هى وليدة
 مخارجها الصوتية على مدرج النطق ، وكان لكل
 انسان مخرج صوت معين على مدرج النطق ايضا،
 فان الانسان الذى ينطبق مخرجه الصوتى على
 مخرج أى حرف من الحروف العربية ، لا بد ان تتأثر
 شخصيته بخصائص ذلك الحرف بالذات .

فالفرد الذى يكون مخرج صوته العفوى المعتاد
 هائيا مثلا ، لا بد ان تكون شخصيته منطبعة مسبقا
 بخصائص صوت هذا الحرف ، اضطرابا نفسيا ويأسا
 وحزنا دفينا ، وان يوحى صوته بالتالى بهذه المشاعر
 بالذات ، وهكذا الامر مع من كان مخرج صوته عينيا ،
 أو حائيا ، أو جبيا ، أو نونيا .. وما الى ذلك من
 المخارج الصوتية للحروف والنماذج الانسانية للأفراد.
 وهذه القاعدة الصوتية اللغوية ، هى أصدق ما تكون
 بين المغنيين والمرتلين .

بين التراث القديم والاسلوب العلمي المعاصر ،
للكشف عن خصائص الحرف العربي ، وعن مقومات
الانسان العربي .

فلقد عنانسي من هذه الدراسة ، أكثر ما عناني
جانباها الثقافي والقومي ، فتوخيت منها أول ما توخيت
أميرين اثنين :

هذه المنحنيات التي تتحكم بحركاته الجسدية واليدوية
والوجهية ، وكذلك بالكتابة والرسم والرقص
والرياضة والجنس ، وكافة النشاطات وأنماط
السلوك . وان القبائل ، وحتى الشعوب برمتها ، لا
تستخدم ، بشكل شبه حصري ، الا واحدا من منحنيات
(بكينج) (5) .

أسوق هذا الخبر (العلم نفسى - الصوتى) ،
للتدليل على ان ثمة علاقة أصيلة بين شخصية
الانسان ، وبين طابعه الصوتى ، ولا يهم كثيرا بعد
ذلك ، ان يكون ، ، او لا يكون ثمة علاقة ما بين
المخارج الصوتية للأفراد والشعوب ، وبين منحنيات
(بكينج) وان كنت لا أستبعدها .

وهكذا قد خصصت القسم الثالث من هذه
الدراسة ، وعنوانه (الحروف العربية والشخصية
العربية) ، لاستثمار خصائص الحروف العربية فى
الكشف عن الجوانب النفسية والاجتماعية والفنية
والاخلاقية فى الانسان العربي ، وعن مدى تجاوب
الحرف العربي مع مقومات الشخصية العربية ،
على حد سواء .

وهكذا بدأت دراستي عن الحروف العربية ،
من حيث انتهى أصحاب المدرسة اللغوية القديمة ،
وانتهيت بها عند أبواب المدارس اللغوية الحديثة ،
لم أتجاوز عتباتها الا قليلا ، ولكن صاحبة مقولة
نظرية اللغة العربية ، فى زيتها المعصري المبتكر .

وأسي لأرجو ان تثير هذه الدراسة اهتمام
اللغويين من أصحاب المدرستين ، ليؤاخوا فى ذلك

١ - ان ألقى بعبء تعريف مفاهيمنا ، وتحديد
مضمونها الثقافى ، على عاتق قبضة من الحروف ، لا
يصعب استيعاب خصائصها . فاذا ما توصل الانسان
العربى الى الكشف عن جميع خصائص الحروف
العربية ومعانيها ، فى محاولات لغوية مماثلة ، استطاع
ان يحرر لغته وفلسفته وأدبه ومفاهيمه من مختلف
الشوائب . ويحرر التراث العربى الاصيل من
ذخيله ومدسوسه ، يستطيع الانسان العربى ان
يستأنف مسيرته الثقافية بروح عصرية جديدة ، دون
ان يتنكر لمضمونه الذائقى ومقوماته القومية .

ب - ان أستنبط من الحروف العربية نهج
الانسان العربى فى الحياة ، بقواعده التى أسس عليها
ذاته ، وأتمم تقاليده ، وبنى مؤسساته . فلربط
بين هذه القواعد وبين خصائص الحروف العربية
ومعانيها ، كحقائق راهنة لا مجال لانكارها ، نبتسك
باللب الاصيل ، ويتخلى عن القشر المرحلى العارض .

وهكذا فالحروف العربية ، انما هى جذور
الانسان العربى فى الطبيعة والتاريخ معا . انها
الجانبية اللامرئية التى تربطه بصميم امته وتجمع
بينه وبين اخوانه على سطوح مجتمعاتها .

ولهذا السبب بالذات ، قد أستهدفت الحروف
العربية منذ مطلع هذا القرن ، ولا تزال تستهدف

نفقد بالتالي ارتباطنا ببيئتنا وأمتنا ، لنغترب في عقر دارنا غربة قاطمة ، لا لقاء معها ابد الدهر .

وعندئذ ، تزداد فرص بقاء ونماء جميع الكيانات السرطانية في جسم الوطن العربي العملاق ، بما يمكن اثارته وزرعه في روابطه وبين أجزائه من مختلف عوامل التفسخ ، ومن شتى ضروب التناقض والنزاع .

لحيلات مشبوهة من تهم التصور والمتم وانفراآت الرجعية والتخلف ، ليصار الى تبديلها بحروف لاتينية تارة ، وللاستماتة من النصى باللجات العابسة المحلية تارات آخر .

وعندما نتخلى عن حروفنا ، او نصحانا ، لابس ان تتطع بذلك جنورنا التتانية والقومية معا ، وان